الصراع الإسلامي المسيحي ومؤشراته في البحر المتوسط خلال ق 16م

د. كمال بن صحراوي
جامعة تيارت

الملخص:

البحر المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي صراعا حادا بين العالمين الإسلامي والمسيحي على مدى قرون عديدة، وقد أملت هذا الصراعَ ظروفٌ مختلفة وتحكمت في مجراه قضايا كثيرة، وهي مؤشرات نعرضها إجمالا في : (المؤشر التاريخي– المؤشر الجغرافي – الاحتلال الإسباني – الاستراتيجية العثمانية – المؤشر الديني – مؤشر الصراع المسيحي المسيحي) . وجاءت نتيجة الصراع أنه لم تكن من السهل على أي طرف من الأطراف إدارةُ الصراع الإسلامي المسيحي على مستوى حوض البحر المتوسط، خصوصا وقد تداخلت المعطيات وتشابكت حيثياتها، ولذلك صار الارتكاز على كل محور جديد داعمٍ وسيلةً هامةً من وسائل النجاح، لذلك ظهر التقارب الزياني الإسباني، والتقارب الحفصي الإسباني، والتقارب الفرنسي العثماني. وهذه الصراعات المتزايدة شتت القبضة العثمانية على بعض الأقاليم فكانت سببا أبرز الجزائر كإيالة تتكفل بصد الهجومات المسيحية المتكررة على بلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: الصراع، المؤشر، البحر، البحرية، صليبية.

Summary:

The Mediterranean Sea, with its eastern and western basins, has been a sharp conflict between the Islamic and Christian worlds for many centuries, and this conflict was dictated by different circumstances and controlled by many issues, which are indicators that we present as a whole in: (Historical indicator - Geographical indicator - Spanish

occupation - Ottoman strategy - Religious indicator - Christian-Christian Conflict Index). The result of the conflict came that it was not easy for any of the parties to manage the Islamic-Christian conflict at the level of the Mediterranean basin, especially as the facts overlapped and their facts were intertwined, and therefore reliance on each new supportive axis became an important means of success, so the Zayan-Spanish rapprochement appeared. And the Hafsid-Spanish rapprochement, and the French-Ottoman rapprochement. These increasing conflicts dispersed the Ottoman grip on some regions, and they were the most prominent cause of Algeria as a state responsible for repelling the repeated Christian attacks on the Maghreb.

Keywords: conflict, indicator, sea, navy, crusader.

عرف البحر المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي صراعا حادا بين العالمين الإسلامي والمسيحي على مدى قرون عديدة، وقد أملت هذا الصراعَ ظروفٌ مختلفة وتحكمت في مجراه قضايا كثيرة، كما دلت على حدته مؤشرات متعددة أفضت في النهاية إلى إخراج صورة عامة لطبيعة العلاقات التي سادت بين ضفتي المتوسط، وهو ما سنحاول معالجته من خلال هذا المقال.

1. المؤشر التاريخي:

لم يكن من السهل على العثمانيين ولوج عالم القوة البحرية في زمن تحولت فيه البحار الرئيسية (البحر المتوسط والبحر الأحمر) إلى أوكار للقرصنة، تغذيها الدوائر الكنسية وتتخذ من "الواجب الديني" المسيحي مبررا لملاحقة التجار والحجاج[1]، ولذلك كان إطلاق يد الإخوة بربروس في البحر المتوسط دعامة للاستراتيجية العثمانية في صراعها ضد المسيحيين في الغرب.

ويندرج الصدام في البحر المتوسط بين القوة العثمانية والقوى الغربية المختلفة في إطار صراع حضاري بين الإسلام والمسيحية، فهو إذًا مجرد حلقة ضمن سلسلة طويلة عرفت تاريخيا بالحروب الصليبية وأنتجت تجاذبات قوية إن على المستويين العسكري أو السياسي أو حتى المستوى الاقتصادي، وأدت – ضمن ما

أدت إليه– إلى تغيير واضح مس الخريطة السياسية على سواحل البحر المتوسط وفي غرب أوربا وجنوبها الشرقي.

لقد كانت جزيرة رودوس[2] وتونس وجربة ومالطة وغيرها محطات رئيسية على طريق تثبيت الوجود العثماني في المتوسط لرد الزحف المسيحي الذي تزايد بعد الاتفاق الإسباني البرتغالي الشهير والمعروف بـــ "توردیزیلاس"[3] في جوان **1494**م، والذي ضمِنت إسبانيا من خلاله حرية الحركة في مواجهة السواحل الإسلامية المتوسطية بعد سقوط غرناطة وبداية حركة "الاسترداد".

وكان من الطبيعي أن يأخذ العالم الإسلامي – في شكل الدولة العثمانية– موقعه بقوة في إطار هذا التحرك الجديد، خاصة وقد فقَدَ مركز القوة في غرب أوربا حين سقطت غرناطة، ولم يكن سقوطها ليُستوعَب بسهولة بعد أن حكم المسلمون الأندلس ثمانية قرون. ومن هنا رأى كل من المعسكرين الإسلامي والمسيحي في تواجد الآخر في البحر المتوسط فعلا يجب أن يقابل برد فعل.

ومن هنا وكرد فعل إسلامي على حركة "الاسترداد" تولدت حركة مقاومة إسلامية في بلاد المغرب الإسلامي تهدف إلى نصرة المسلمين الفارين من الأندلس، وإن كانت ترمي إلى أبعد من ذلك، كانت ترمي إلى إيقاف الخطر المسيحي المتنامي، وكان وصول الإخوة بربروس – سواء بصفتهم الشخصية أو تحت لواء الحكم العثماني فيما بعد– متنفسا قويا لحركة المقاومة هذه.

2. المؤشر الجغرافي:

كانت شساعة الأراضي العثمانية الممتدة عبر **03** قارات (جنوب غرب آسيا– جنوب شرق أوربا– شمال إفريقيا) عاملا مهما في عظم التحدي الذي رفعه العثمانيون في البحر المتوسط، كما كان سببا رئيسا في قبول إمداد الإخوة بربروس بكل ما كان ضروريا ليتكفلوا من جهتهم بصد الزحف المسيحي في الغرب.

من جهة أخرى ولجت أوربا عالم الاكتشافات الجغرافية التي تزعم فكرةَ الدعوة إليها الملكُ البرتغالي هنري الملاح[4] والتي كانت تهدف إلى تطويق العالم الإسلامي من قِبَل القوى المسيحية الأوربية، ولذلك تم الترويج لشخصية القديس

يوحنا ومملكته لإيهام المسيحيين البسطاء أنها موجودة في بلاد شاسعة في إفريقيا وأن صاحبها يمتلك ثروة كبيرة، ومن الضروري البحث عنه وعن مملكته[5]، وهو ما يحتم بالتالي مهاجمة بلاد المغرب والاستيلاء عليها للمرور إلى هذه المملكة المزعومة.

من هنا إذًا يندرج التوسع العثماني في غرب المتوسط ضمن حركية تاريخية تهدف إلى إيجاد نوع من التوازن في إطار التحرك المسيحي الجديد الذي يرمي إلى أخذ المسلمين من الخلف والسيطرة على بلادهم، وإضعاف اقتصادهم بإيجاد طرق بديلة عن البحر المتوسط والبحر الأحمر.

ذلك أن البرتغاليين سيطروا على جزيرة سوقطرة في خليج عدن ثم سيطروا على هرمز ليضمنوا السيطرة على مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي، وفشِل المماليك في مواجهتهم حتى جاءت الدولة العثمانية فعملت على تطهير المنطقة منهم لكن ذلك استغرق وقتا طويلا وجهدا مضنيا، ففي **1554م**[6] أوقع الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا هزيمة بالبرتغاليين تمت على إثرها تصفية مواقعهم على طول امتداد شواطئ البحر الأحمر، وبذلك استعادت الطرق التجارية القديمة حيويتها عبر هذا البحر وسواحل إفريقيا الشرقية بعد أن ضيق عليها البرتغاليون بهدف تنشيط الطريق الجديدة عبر رأس الرجاء الصالح.

3. الاحتلال الإسباني:

إضافة إلى هذه الظروف الدولية الصعبة عاش المغرب الأوسط بدوره ظروفا محلية وإقليمية لا تقل خطورة حيث استطاع الإسبان السيطرة على كثير من المدن الساحلية، وبات السلطان الحفصي يأمل في الانقضاض على الجهة الشرقية، وزاد الأمرَ صعوبةً تخاذلُ الزيانيين بل تحالفهم مع الإسبان، ولذلك لم يجد الإخوة بربروس الساحة مهيأة ولا الظرف مناسبا ليبسطوا نفوذهم بسهولة فلجأوا إلى الدولة العثمانية ولكن عبر أهالي مدينة الجزائر الذين بعثوا برسالة إلى السلطان سليم لأول في أوائل ذي القعدة سنة **925**ه (ما بين **26** أكتوبر و**03** نوفمبر **1519**م) حملها إليه أبو العباس أحمد بن علي المعروف بابن القاضي، وقد رجوه فيها بألا يتخلى

عنهم، وأبانوا له عن رضاهم الشديد عن خير الدين، ودَعَوْهُ إلى إبقائه في بلادهم ودعمه بما يحتاج إليه[7].

إذًا كانت تبعية الجزائر الرسمية للدولة العثمانية المفتاح الذي سيستخدم لتوسيع الحكم العثماني في بلاد المغرب الإسلامي باستثناء المغرب الأقصى الذي عرف ظروفا خاصة [8]. وظل الوجود الإسباني في وهران شاحذا للهمم محفزا على الجهاد، وهو ما نلحظه من خلال قوة العلاقة بين السلطة العثمانية وبين العلماء ورجالات الطرق الدينية في الجزائر، إلى أواخر مراحل الحكم العثماني لها حيث شاركوا بأنفسهم في حركة الجهاد أفرادا وجماعات وخاضوا المعارك وألّفوا الكتب ونظموا الأشعار لإلهاب حماس الناس والتحضير للمقاومة، بل وكوّنوا رباطا لهم قرب وهران سُمي "برباط الطلبة"[9] لتأطير عملية حصار المدينة وتحريرها فيما بعد.

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أبو راس الناصري صاحب " الحلل السندسية في فتح ثغر وهران والجزيرة الأندلسية"[10] وابن زرفة الدحاوي كاتب الباي محمد بن عثمان الكبير وصاحب "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" وقد خصص فصلا كاملا من كتابه للترغيب في الجهاد وترهيب من تغافل عنه من العباد، مع ذكره لنبذة مختصرة عن فضائله وبعض رُتب الشهيد[11]، والقاضي ابن حواء الذي كان نائبا لرئيس رباط وهران محمد بن عبد الله الجيلالي وقد استشهد رحمه الله في عملية التحرير، كما كان للشعراء حضور ذو معنى فهم يسجلون الانتصارات وتلهج ألسنتهم بمديح البايات والدايات الذين يشهرون سيوفهم في وجه الإسبان. فهذا مثلا لخضر بن خلوف الشاعر الشهير يخلد معركة مزغران – التي وقعت بين المسلمين والإسبان عام 965ه (1558م) – في قصيدة مطلعها:

يا سايلني عـــن طراد الروم قصة مازغران معلومة
يا فارس من ثم جيت اليوم عيد اخبار الصح معلومة

وهذا الشاعر عبد الرحمن بن موسى يشيد بجهاد العثمانيين خاصة زمن حسن بن خير الدين باشا، حتى أنه حين توفي مشى الناس في جنازته حتى الترك[12] لعظم شأنه عندهم.

وجدير بالذكر أن هذا الشعور المشترك بضرورة الجهاد لرد العدوان المسيحي هو الذي قوى الرابطة بين العثمانيين وسكان الجزائر، فالعلماء والمرابطون "يزكون" الوجود العثماني، والعثمانيون يعفونهم من الضرائب ويخصّونهم بكثير من الامتيازات، حتى إذا أُخرج الإسبان من وهران تراخى هذا الشعور تدريجيا وصارت العلاقة تبعا لذلك تسوء يوما بعد يوم، وكان من نتائج ذلك كله أن قامت الانتفاضات وكثرت الثورات وهو ما شكل أساسا لضعف الحكم العثماني في الجزائر.

4. الاستراتيجية العثمانية:

إن التحولات الكبرى التي عرفها الصراع الإسلامي المسيحي حتمت على الدولة العثمانية أن تحوّل طابع قوتها العسكرية من بري إلى بحري ليتماشى وهذه التحولات، وقد كتب جون شيسنو **J.Chesneau** حوالي **1540**م أن الأتراك لم يكونوا يعرفون البحر، وأنهم لم ينجحوا فيه أبدا غير أن بربروسة قد غير ذلك بعض الشيء[13]، لكن جون وولف يرى أن هذه التقديرات كانت خاطئة ويعتمد على ما أورده المؤرخ الأمريكي هيس **A.Hess** بخصوص وحدات البحرية العثمانية التي كانت تحارب البحارة البنادقة في بحر إيجة وتحارب البرتغاليين في البحر الأحمر[14]، على أن ذلك لا ينقص من شأن خير الدين ودوره في تقوية الأسطول البحري العثماني[15].

كما تجدر الإشارة إلى أن البحرية العثمانية لم يكن ظهورها مرتبطا بالسلطان سليم الأول ولا بالصراع العثماني الإسباني، فقد عمل السلطان مراد الثاني قبل ذلك مثلا على إعادة النظر في إستراتيجية البحرية العثمانية خاصة بعد أن هُزم الأسطول العثماني أمام أسطول البندقية عام **1416**م، واهتم محمد الفاتح أيضا بالقوة البحرية باتخاذ مدينة غاليبولي مركزا لهذا للأسطول[16].

ولا ننسى أن القرن **16**م مثّل المرحلة الثانية في بناء الدولة العثمانية المركزية التي شهدت مع سليم الأول التطلع إلى تحقيق فكرة الدولة العظمى، وهو الذي

استصغر خارطة الأرض حين نظر إليها قائلا: " وهل تتسع هذه الدنيا لأكثر من ملك واحد"[17].

غير أن الوصول إلى تحقيق هذا الطموح صار يستدعي العمل أكثر بعد ذلك، فالسيطرة الإسبانية على مالطة وصقلية ونابولي وحلق الوادي ستسهل احتواء أي هجوم عثماني نحو الغرب، وهذا ما سيتعزز أكثر بالسيطرة على طرابلس[18] وجزيرة جربة. هكذا كانت حسابات الإسبان، وهو ما يفسر تركز عمليات الجهاد البحري العثماني– كرد فعل على هذه الحسابات– بسواحل شمال إفريقيا بين طرابلس الغرب ومدينة الجزائر[19].

وكان من بين أسباب الغبن الذي عرفه الأسطول العثماني في البحر المتوسط كثرة التحالفات المعادية له، فقد أدرك خير الدين ضرورة نجدة التونسيين ضد السلطان الحفصي حليف الإسبان، فاتجه إلى تونس لكن حملته فشلت (**1535**م) بسبب حملة شاركان التي ركزت الوجود الإسباني أكثر في تونس وحلق الوادي. وبسبب كثرة الأعداء صار الأسطول العثماني يتحرك شرقا – كما سنرى– ويتحرك غربا لنجدة مسلمي الأندلس وصد الزحف المسيحي المتنامي.

وفي هذا الإطار تمكن البحارة الجزائريون من شن **33** غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية بين **1528**م–**1584**م، وتمكنوا من نقل عدد كبير من مسلمي الأندلس المهددين بالموت[20]، ومن أشهر هؤلاء البحارة نذكر على سبيل المثال لا الحصر صالح رايس، حسن فينيزيانو، مراد رايس. وقد استفادت البحرية الجزائرية من خبرة بعض هؤلاء المهرَّبين من الأندلس في الإبحار وفي صناعة السفن[21] وغيرها.

5. المؤشر العسكري:

في **1571**م شهد شرق المتوسط معركة كبيرة في خليج ليبانت[22] قبالة الساحل اليوناني، وقد شاركت فيها إسبانيا[23] والبابوية والبندقية ضد الأسطول العثماني الذي هُزم. ولئن كان بعض المؤرخين قد اعتبر هذه الهزيمة نكسة عثمانية حقيقية في البحر المتوسط[24] فإن باحثين آخرين اعتبروا تحرير تونس وحلق الوادي

من الاحتلال الإسباني بعد 03 سنوات من ذلك (1574م) مؤشرا على قدرة العثمانيين على تخطي الهزيمة، ودلالةً واضحة على أن التحالف الذي صنع قوة المسيحيين في ليبانت لم يكن كافيا لقهر القوة العثمانية في المتوسط.

وجدير بالذكر أن الأسطول العثماني الذي هُزم في معركة ليبانت لم يدمر كله وإنما أعيد بناءُ جزء منه على يد علج علي الشخصية البارزة في تاريخ البحرية الجزائرية[25]، وعلى يده أيضا تم إخراج الإسبان وحلفائهم الحفصيين نهائيا من تونس عام 1574م.

كانت القوة العسكرية إذًا معيارا دقيقا كثيرا ما بنيت عليه حسابات دولية، فهذه البندقية مثلا كانت تعرف تذبذبا في مواقفها رغم ما حظيت به من امتيازات في شرق المتوسط، إذ ظلت تدعم القوى المسيحية المتحالفة ضد العثمانيين لكن موقفها استقر على الانسحاب من هذا الحلف بعد معركة ليبانت، رغم انتصار المسيحيين، وما كان تقرب الفرنسيين من سليمان القانوني ليتم لو لم تكن القوة العثمانية ضاربة في البحر المتوسط، بل هل كان سكان مدينة الجزائر في بداية القرن 16م ليستنجدوا أصلا بالسلطان سليم الأول لو توفرت لديهم القوة العسكرية الذاتية الكافية لرد التحرشات الإسبانية[26]؟

6. المؤشر الديني:

من المحفزات الرئيسية التي أدت إلى احتدام الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط دور الكنيسة وباباواتها في دعم البحارة الأوربيين والسياسة الأوربية العدوانية، خاصة دور البابا بيوس الخامس[27] الذي رأى في هذا الصراع "حربا صليبية جديدة" واستطاع إقناع الملك الإسباني فيليب الثاني بأن المصالح الإسبانية تتطلب حربا بحرية "جدية" ضد الدولة العثمانية.

لقد كان التحرك الجديد الإسباني البرتغالي قويا يتبنى مبدأ الصراع الحضاري؛ ذلك أن المسيحية – كما يقول أبو القاسم سعد الله[28]– ليست يومئذ دينا فقط ولكنها تجمع جوانب مختلفة، فهي اللغة اللاتينية، وهي التراث الإغريقي الروماني، وهي أوربا التي تسكنها العناصر البيضاء، وهي بالتالي تمثل الوجه الشمالي

لهذا الصراع الحضاري، بينما كان العالم الإسلامي يمثل الجنوب بالتعبير الحالي، فهو الإسلام، وهو العربية وهو التقاليد الشرقية وغيرها.

إن هذا المناخ الديني المتطرف الذي ساد أوربا المسيحية وطبع سياسة ملوكها خاصة في شبه الجزيرة الإيبيرية ازداد تأثيره بشكل خاص بعد أن سقطت غرناطة[29] حيث سادت موجة من الشعور العارم بضرورة مواصلة ما تم بدؤه بنجاح، ولذلك تم تعزيز الحملات البحرية ضد السواحل الإسلامية سواء المتوسطية أو الأطلسية.

ولا شك – في المقابل – أن الدافع الأول والمحرك الأساس للعثمانيين في غرب المتوسط كان الدفاع عن الإسلام والذود عنه بعد أن ظهرت سياسة البابوية المتمثلة في دعم القوى المسيحية الإسبانية، البرتغالية، الجنوية والبندقية وغيرها.

ولذلك كان العلماء والمتصوفة في المغرب الإسلامي يدعون إلى الجهاد ويحرّضون الناس عليه لما رأوا من الخطر المسيحي الداهم، فهذا عبد الرحمن الثعالبي في القرن 15م (قبل دخول العثمانيين إلى الجزائر) يكتب إلى أحد تلامذته في بجاية يطلب منه أن يدعو الناس إلى اتخاذ عُدة النصر والاستعداد للحرب: "فاكتب رحمك الله لإخواننا ببجاية وحذّرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا إليه من الدرق[30] على الوجه الذي أشرنا إليه، فهي أقرب مراما وأقل تكلفة من بناء الأسوار التي لا يرقها (أو لا يرفعها) إلا المال الكثير في الزمان الطويل ... ولو اطلعتم على ما اطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهماتكم بعد الصلاة إلا بآلة الجهاد"[31].

وقبل أن تقع وهران في يد الإسبان كتب العارف محمد التواتي قصيدة أنذر فيها أهل المدينة وأوصاهم بضرورة الاستعداد التام والاستعانة بمهاجري الأندلس حيث قال[32]:

عليكم بهم فاستعملوا في وصولهم إليكم ذكا عقل وألطف حيلة

ولم يرضَ كثير من المرابطين عن الأوضاع التي سادت تلمسان أواخر القرن 9ه (15م) وبداية القرن 10ه (16م) فمالوا إلى العثمانيين، ومن هؤلاء يوسف المليانى[33] الذي أثر – خاصة وهو من أتباع الطريقة الشاذلية– على الحكم الزياني

حين تحالف مع العثمانيين، وهز أركان الدولة الزيانية بالتجمعات التي كان يعقدها في رأس الماء وتلمسان ووهران[34].

ونظرا لتعاظم هذا التأثير الديني – الإسلامي من جهة والمسيحي الكنسي من جهة أخرى – على الأوساط السياسية والعسكرية ازدادت حدة هذا الصراع، وكان من نتائجه أن تعرضت الجزائر – الوجه العسكري[35] العثماني في غرب المتوسط – إلى حملات كثيرة شاركت فيها البابوية، ومنها[36]:

- حملة شارلكان الصليبية ضد الجزائر في **1541**م والتي باركها البابا بول الثالث وأيدها
- حملة البابا بيوس الرابع ضد طرابلس وجربة والجزائر عامي **1559**م – **1560**م
- الحملة الصليبية الضخمة ضد مدينة الجزائر عام **1601**م والتي اشتركت فيها قوات البابوية إلى جانب قوات جنوة، نابولي، توسكان، صقلية، سردينيا، وغيرها.

7. مؤشر الصراع المسيحي المسيحي:

هناك مؤشر آخر كانت له أهمية خاصة في الصراع الإسلامي المسيحي آنذاك وهو الصراع المسيحي المسيحي الذي احتدم بشكل قوي بين إسبانيا وفرنسا، فشارلكان[37] الإسباني كان يحكم إمبراطورية واسعة (إسبانيا وألمانيا والأراضي المنخفضة وأجزاء من إيطاليا والنمسا)، وقد اعتبر نفسه المدافع عن المسيحية كلها، لكنه ورث مشاكل عرش برغانديا[38] التي ستضاف إلى مشاكل إيطاليا وتُدخله في حروب ضد فرانسوا الأول [39] والتي ستعرف تاريخيا بحروب الهابسبورغ – فالوا (**Habsburg - Valois**) وقد دامت قرابة نصف قرن.

في إطار هذا الصراع وقعت معركة بافيا **Pavie** في لومبارديا بإيطاليا في **1525**م بين فرنسا وإسبانيا وأسر فيها الملك فرانسوا الأول، فبعثت أمه رسولا إلى السلطان العثماني سليمان القانوني ومعه رسالة منها وأخرى من الملك الأسير يطلبان فيهما منه مهاجمة قوات الهابسبورغ وتحرير فرانسوا الأول.

ورغم أن هذا الملك تم تحريره بموجب اتفاقية بين فرنسا والهابسبورغ فإنه ظل يتوق إلى التحالف مع العثمانيين للثأر من إسبانيا خاصة وأنها لم تتوقف عن مهاجمة أراضيه من الجنوب ومن الشرق، وكانت نتيجة هذه الرغبة عقد اتفاقية "الامتيازات" الشهيرة عام **1535**م، والتي استفاد منها الفرنسيون تجاريا بالتخلص من الضغط الذي فرضه البرتغاليون بالسيطرة على رأس الرجاء الصالح، وسياسيا بحصولهم على حق حماية رعايا الدول الأوربية تحت العلم الفرنسي، ولكنهم استفادوا أكثر من الناحية العسكرية حين صارت القوات العثمانية تدافع عن مدنهم مثلما فعل خير الدين حين فك الحصار عن مدينتي نيس وطولون ودفع الخطر الإسباني عنهما وقضى فصل شتاء **1543**م – **1544**م بمنطقة الميدي [40] حتى تأكد من زوال الخطر[41].

وقد جاء ذلك بعد إلحاح فرانسوا الأول على سليمان القانوني لينجده بأسطوله فكتب إليه السلطان رسالة جاء فيها: "يا فخر أمراء دين عيسى ستعلم أنه بطلب من وزيرك بولين **Poulin** منحتك أسطولي الرهيب المجهز بكل ما يلزم وأمرت خير الدين قابودان باشا بالاستماع إليك والاستعداد لتدمير أعدائك، واحترس من أن يخدعك عدوك مرة أخرى لأنه لن يخلد إلى الصلح معك إلا إذا عرف أنك ستشنها عليه حربا لا هوادة فيها، بارك الله في سعي من رعى صداقتي وحميتُه بسيفي المظفر"[42].

كان الصراع المسيحي المسيحي إذًا عاملا نفسيا مساعدا لخير الدين حيث خفّف من وطأة مؤتمر توردیزیلاس على العالم الإسلامي وضيّق الخناق بشدة على التحرك المسيحي وأضعفه حين لم تكن فرنسا طرفا فيه، خصوصا حملة شارلكان الشهيرة على مدينة الجزائر عام **1541**م.

لقد استفاد خير الدين من عاملين أساسين في ذات الوقت هما التنافس الفرنسي الإسباني والتقارب الفرنسي العثماني، فانطلقت حملته في أواخر ماي **1543**م يرافقه **14** ألف رجل، وحين مر بروما أصيب أهلها بهلع كبير، لكن القنصل الفرنسي **Poulin** الذي كان يرافقه هدأ من روعهم وأفهمهم أن خير الدين لا ينوي مهاجمتهم. ورغم ذلك علم الجميع أن هذه الحملة مثلما هددت

إيطاليا الإسبانية هددت إسبانيا ذاتها و"لم يعد الموضوع هو الإنزال الإسباني بالجزائر بل أصبح هو الإنزال التركي على الأرض الإسبانية نفسها"[43].

كما استفادت البحرية العثمانية – من جهة أخرى– من اختلاف حسابات المسيحيين، وما نتج عنه من تباين كبير في المواقف تبعا لمقدار المصلحة التي سيتم تحقيقها، فإذا كانت البندقية قد حصلت على امتيازات عثمانية هامة[44] فإنها لم تتخل عن دعمها للجهود الإسبانية لإنهاء الوجود العثماني في المتوسط إلا في الربع الأخير من القرن 16م – كما قلنا سابقا– حين انسحبت من الحلف المعقود ضد العثمانيين[55]، وهو ما أحرج قيادات مدن أخرى أمام رعاياها الذين صاروا يتذمرون من الضرائب التي تفرضها عليهم إسبانيا لدعم مواجهة العثمانيين، وقد ساهم ذلك كله في خدمة القضية الإسلامية في البحر المتوسط.

8. استنتاج:

لم تكن من السهل إذًا على أي طرف إدارةُ الصراع الإسلامي المسيحي على مستوى حوض البحر المتوسط، خصوصا وقد تداخلت المعطيات وتشابكت حيثياتها، ولذلك صار الارتكاز على كل محور جديد داعمٍ وسيلةً هامةً من وسائل النجاح، وإذا كانت الآصرة العقيدية[46] قد طبعت العلاقات الدولية بشكل عام، فإن المنافسة المبنية على المصالح كثيرا ما تجاوزت هذا المعيار وراحت تزج بالمنطقة في مضمار التحالفات، وهو ما نلحظه من خلال التقارب الزياني الإسباني، والتقارب الحفصي الإسباني، والتقارب الفرنسي العثماني.

إن دخول العثمانيين دائرة الصراع في غرب المتوسط لم يُعفهم من مسؤولية إدارته في جهتين أخريين؛ في البلقان وفي جنوب البحر الأحمر، خصوصا وقد صارت جبهتهم الشرقية مهددة بفعل الخلاف مع الصفويين في بلاد فارس[47]، ولعل هذا التشتت كان من بين أهم الأسباب التي أبرزت الجزائر كإيالة إلى الواجهة وجعلتها تتكفل بصد الهجومات المسيحية المتكررة على بلاد المغرب.

9. الهوامش:

(1) محمد بك فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة محمد أفندي بحوش بمصر المحمية، 1893، ط1، ص97

(2) Rhodes جزيرة يونانية اتخذها فرسان القديس يوحنا مقرا لهم منذ 1309م بعد أن تحولوا من رهبان إلى عسكريين عقب الحروب الصليبية، وقد حاول العثمانيون فتح الجزيرة عدة مرات لكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا عام 1522م فانتشر فرسان يوحنا في سواحل البحر المتوسط قبل أن يتخذوا من مالطة مقرا لهم بعد أن أعطاهم إياها شارلكان عام 1530م.

– ومن الكتابات التي اهتمت بفرسان يوحنا في الساحل المتوسطي الإسلامي خاصة في ليبيا وحالة التجاذب القوي التي كانت بين القوى الإسلامية ونظيرتها المسيحية ما كتبه عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952.

(3) رعت الكنيسة هذا الاتفاق لتخفيف حدة التنافس الإسباني البرتغالي حول مناطق النفوذ، وكان اتفاق طليطلة قد سبقه في 1480م ثم عززتهما بمؤتمر فيلا بلانكا عام 1509م

– للتعرف أكثر على العمل المشترك الإسباني البرتغالي خلال الصراع الإسلامي المسيحي في القرن 16م يراجع: صالح حيمر، التحالف الأوربي ضد الجزائر 1541م وتأثيراته الإقليمية والدولية، مذكرة ماجستير، جامعة باتنة/الجزائر، 2006-2007

(4) 1394م– 1460م

(5) زهراء النظام، "العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط"، العثمانيون والعالم المتوسطي، الرباط: منشورات كلية الآداب، 2003، ط1، ص58

(6) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، بدون تاريخ، ص 70

(7) عبد الجليل التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 6، تونس، 1976، جويلية، ص ص 116–120

(8) للتعرف أكثر على علاقات المغرب الشريفي بالدولة العثمانية يراجع: زهراء النظام، "العلاقات المغربية التركية وتطورها عبر التاريخ"، مجلة التاريخ العربي، العدد 48.

(9) يحي بوعزيز، "دور العلماء و الرباطات في تحرير مدينة وهران من أيدي الإسبان"، مجلة دراسات مغاربية، العدد 01، أكتوبر 1988، ص 107.

(10) تلقى أبو راس خبر تحرير وهران وهو في تونس عائدا من الحج "لما خرجنا من البحر في شهر شعبان سنة 1205هـ وجدنا خبر محاصرة المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان لوهران بسوسة والمنستير وصفاقص .. ووجدنا خبر جهاد وهران عند أهل جربة، وأيضا أهل تونس سمعوا". يراجع: أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق محمد غالم، وهران: منشورات المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ط 1، 2005، ص 33

(11) قدور بوجلال، العلم والعلماء في بايلك الغرب؛ معسكر ومازونة نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة معسكر، 2009، ص 125

(12) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1985، ص ص196-197

(13) جون وولف، الجزائر وأوربا، ترجمة وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب. 1986. ص 44.

(14) جون وولف، نفسه. ص44

(15) من الكتابات الأجنبية التي عالجت مسألة بدايات الوجود العثماني في الجزائر ودور الإخوة بربروس في تكوين الدولة الجزائرية بنوع من التفصيل:

Henri Delmas de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque, 1515-1830

(16) مصطفى عبد الله الغاشي، "البحر الأبيض المتوسط في الاستراتيجية العثمانية؛ حالة القرن 16م" العثمانيون والعالم المتوسطي، الرباط: منشورات كلية الآداب، 2003، ط1، ص 39.

- للاستزادة في هذا الموضوع يراجع: حضرة عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، تقديم محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1995، ط1

(17) نفيسة الذهبي، "الدولة العثمانية في مجالها المتوسطي خلال القرن 16م بين استراتيجية الجهاد وصراع الهيمنة"، العثمانيون والعالم المتوسطي، الرباط: منشورات كلية الآداب، 2003، ط1، ص81

(18) ثغر إسلامي هام على البحر المتوسط، كانت به قلعة عسكرية كبيرة تدعى تاجورة صارت محصنة بشكل قوي بعد اهتمام خير الدين بها.

(19) نيكولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574)، ترجمة يوسف عطا لله، بيروت: دار الفارابي، 1988، ط1، ص255

(20) سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ؛ العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب. 1984. ص 44

(21) كانت صناعة السفن تتطلب أموالا طائلة جدا وخبرات عالية، وكان هذا في حد ذاته عائقا كبيرا أمام تطور البحرية، وكسبيل لتخطي هذه المشكلة عمد الرياس إلى الاستحواذ على أكبر قدر من السفن الأوربية التي تستغل بذاتها في العمليات اللاحقة، أو تستخدم كنماذج تنسخ عنها سفن جديدة، أو توفر مواد وتجهيزات أولية لسفن أخرى.
– للاستزادة في هذا الموضوع يراجع: حسن أميلي، البحرية "العثمانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرنين 16م – 17م من الريادة إلى التبعية"، العثمانيون والعالم المتوسطي، الرباط: منشورات كلية الآداب، 2003، ط1، ص ص 91–117

(22) من الكتابات التي وصفت المعركة وأسباب انهزام الأسطول العثماني فيها: جون وولف، مرجع سابق، ص 86 وما بعدها

(23) من الأسماء الإسبانية المعروفة التي شاركت في المعركة ميغال دي سرفونتيس (1547–1616) صاحب الرواية الشهيرة دون كيشوت، وقد أصيب في يده فلم يعد قادرا على استخدامها، وقد عاد مرة أخرى إلى المشاركة في التحرشات الإسبانية ضد الجزائر فقبض عليه رياسها وتم سجنه ليطلق سراحه بعد أن دفعت إسبانيا فديته.

(24) يقول سعد الله مثلا وهو يتحدث عن علج علي: "ولعله كان من الملاحظين الأذكياء لنتائج معركة ليبانتو التي كانت عبارة عن خط بياني (سنة 1571م) لبداية التراجع العثماني". أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج 4. 2005. ط2، ص 189

(25) للتعرف أكثر على شخصية علج علي ومكانته في تاريخ البحرية الجزائرية يراجع: محمد سي يوسف، علج علي والدولة العثمانية، وهو مؤَلـــّف كتب تصديرَه أبو القاسم سعد الله ونشره ضمن كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، بيروت: دار الغرب الإسلامي.2005. ج 4. ط2. ص186 وما بعدها، وقد أشاد كثيرا بمنهجية الباحث في تسليط الضوء على حياة علج علي والظروف الدولية التي عرفتها منطقة البحر المتوسط في زمنه.

(26) نحن نحاول تحليل أهمية هذه المؤشرات ولسنا في مقام تأكيد رأي المصادر المعادية للعثمانيين التي تقول: إنهم استغلوا القوة العسكرية لتحقيق أهداف توسعية محضة وإنهم لم يحملوا أي مشروع حضاري.

(27) *Pius* V (1504م – 1572م)

(28) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء ... مرجع سابق، ج4، ص187

(29) زهراء النظام، مرجع سابق، ص 64

(30) الترس

(31) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء ... مرجع سابق، ج 01 ص 210

(32) أبو القاسم سعد الله، نفسه، ج 01 ص 174

(33) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر ... مرجع سابق، ج1 ص 502 ، والمليانى من قرية بني راشد قرب تلمسان وسمي هكذا لأنه دفن بمليانة عام 931 ه/1525م

(34) أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 504

(35) ليس المقصود هنا تأكيد ما ذهب إليه المؤرخون الغربيون حين ادعوا أن الجزائر مثلت المدافع عن مصلحة "دولة أجنبية" حين قبلت دخولها في إطار الخلافة العثمانية. وللتعرف أكثر على كيفية تعامل الأوربيين مع التاريخ الجزائري يراجع موضوع "منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر" من كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر لأبي القاسم سعد الله، ج1، ص 13 وما بعدها

(36) يحي بوعزيز، "علاقات الجزائر مع دول وممالك أوربا فيما بين القرن 16م ومطلع القرن 19م"، مجلة الثقافة، العدد 48، 1978، ص 24

(37) Charles V أو Charles Quint (1550م –1558م) انتخب على رأس العرش الإمبراطوري للدولة الرومانية المقدسة، كان يدعى شارل الخامس في ألمانيا أما في إسبانيا فكان يدعى شارل الأول

(38) منطقة Bourgogne أو Burgandi تقع في شرق فرنسا

(39) François 1er (1494م – 1547م)

(40) Midi-Pyrénées منطقة كبيرة في جنوب فرنسا من أهم مدنها تولوز

(41) يحي بوعزيز، علاقات الجزائر... مرجع سابق، ص 22

(42) صالح حيمر، مرجع سابق، ص 139

(43) جون وولف، مرجع سابق. ص62، وجدير بالذكر أن كتاب وولف هذا كثيرا ما يمدح البحارة المسلمين لكنه مليء بالعبارات التي تحمل الكراهية للعثمانيين وللجزائريين بل للإسلام وشعائره، فهو مثلا يعتبر الوجود العثماني في المتوسط اعتداء (ص62) ويعتبر شهر رمضان شهر تعصب، فقد كتب متحدثا عن حادثة المروحة: " لقد كانت صدفة سيئة الحظ، إذ حدثت في نهاية شهر رمضان، وهو الوقت الذي يصل فيه التعصب الإسلامي درجته القصوى" (ص 449)، وهذا الموقف يشترك فيه كثير من الكتاب

الغربيين وهو ليس بغريب، لأنه يكاد يكون الطابع العام لمواقف الغرب المسيحي من الإسلام.

(44) في 1540م عقد صلح بين الدولة العثمانية والبندقية التي تخلت عن آخر ممتلكاتها في شبه جزيرة المورة واعترفت بالوجود العثماني في بحر إيجة وأقرت بدفع غرامة مالية كبيرة مقابل اعتراف العثمانيين باستمرار حكمها في جزيرة كريت وقبرص وعودة الامتيازات التجارية التي كانت بيدها في المنطقة.

– في ذات الموضوع يراجع: إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص 70 وما بعدها

(45) محمد أحمد محمد دار، "دور بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط في المغرب العربي خلال القرن 10ه/16م" ، مجلة التاريخ العربي، العدد 14، 2000 .

(46) نقصد التكتل الإسلامي الإسلامي الناشئ خصوصا بعد سقوط غرناطة وملاحقة محاكم التفتيش لمسلمي الأندلس، كما نقصد التكتل المسيحي الذي كان تحت رعاية الكنيسة.

(47) للتعرف أكثر على ما عاناه العثمانيون في الشرق يراجع: محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط 1، 1987.